الباب الثالث

أوروبا وأمريكا وإسرائيل

١- الاستشراق السياحى.

٢- هل تعود أوروبا لاستقلالها؟

٣- هل تستطيع أوروبا أن تحاور غيرها؟

٤- السحر والإعلام فى الوعى الغربى.

٥- هل تحرر الوعى الأوروبى من الاستعمار؟

٦- العنف الأمريكى فى الداخل أيضا.

٧- الصهيونية والمحافظة الجديدة.

٨- الدولة اليهودية.

obeikandl.com

obeikandl.com

١- الاستشراق السياحي

الاستشراق هو دراسة الغرب لغيره من الحضارات. الغرب ذات، والحضارات الأخرى موضوع. الغرب ملاحِظ والحضارات الأخرى ملاحَظ. الغرب دارس، والحضارات الأخرى مدروس. واكب في نشأته صعود الغرب الحديث واحتلاله مكان الصدارة في العالم بعد سقوط غرناطة، آخر مدن الأندلس، وطرد المسلمين واليهود من أسبانيا إلى المغرب العربي من حيث أتوا. تمثل فيه منذ البداية روح العنصرية والعداء والاسترداد أي العودة إلى احتلال أراضي الغير بحرا، التفافا حول القارات، فيما سمي بالكشوف الجغرافية، بعد أن فشل برا عن طريق التوجه إلى القلب في فلسطين، والحضارة الإسلامية في آخر مرحلتها الأولى في القرن السادس الهجري. فظهرت فيه منذ البداية أهداف الاستعمار ورؤيته للعالم. بدأه المبشرون والقواد والحكام والمغامرون والمسحورون بالشرق من المغرب حتى الصين. وأنشئوا مجالات للدراسات الحضارية للصين والهند وفارس ومصر والمسلمين وأخيرا العرب والشرق الأوسط.

وقد تطور الاستشراق في الغرب الحديث. تنوعت أهدافه، وتعددت مناهجه وأساليبه طبقا لتطور مناهج البحث العلمي ومدارس العلوم الإنسانية في الغرب. بدأ بالاستشراق الديني الذي صاغه بعض المبشرين بعد أن زاروا الشرق أثناء الحروب الصليبية وتعرفوا على لغات الشرق وثقافاته وعادات شعوبه. وظهر فيهم

(*) الاتحاد: ١٠ مارس ٢٠٠٧، الدستور: ١٢ مارس ٢٠٠٧.

العداء لهذه الثقافات والشعوب التى أتاها مصاحبا للغزوات العسكرية أو لحملات التبشير. ولما كان الإسلام هو السائد فى الشرق فلم يُعترف بالوحى الإسلامى كاستمرار للوحى منذ إبراهيم حتى عيسى، واعتبر هرطقة يهودية مسيحية ظهرت فى بلاد العرب. تقوم على الحس والجنس والتعصب والعنف والانغلاق والعبودية والحريم.

ثم تحول إلى الاستشراق التاريخى عندما سادت مناهج البحث التاريخى، وانتشرت المدرسة التاريخية، وسادت النزعة التاريخية فى الغرب. كان الهدف هو جمع أكبر قدر من المعلومات عن الشعوب والثقافات غير الأوروبية لجمع المعلومات واستخدامها من أجل إحكام السيطرة عليها بعد الغزو العسكرى المباشر، وخلق طبقات جديدة متعاونة معه باسم التحضر والتمدن والحداثة والتثقيف، اعتناق المسيحية أولا ثم الثقافة الغربية ثانيا حتى ينسلخ المواطن عن دينه وثقافته وشعبه، ويصبح مواليا للغرب وممثلا لثقافة الرجل الأبيض داخل الشعوب السوداء فى أفريقيا، والسمراء فى العالم الإسلامى، الشرق الأدنى، والصفراء فى الصين واليابان وكوريا والهند الصينية والفلبين، الشرق الأقصى، بالنسبة لمدى قربها أو بعدها عن القوى الاستعمارية فى الغرب الحديث، انجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال وبلجيكا وهولندا وأخيرا إيطاليا.

ثم تحول الاستشراق التاريخى إلى استشراق لغوى بالتركيز على اللغة لمعرفة التراث المدون ولحسن المخاطبة مع الشعوب شفاها. ثم قادت اللغة إلى الأدب، والأدب إلى الثقافة، والثقافة إلى الحضارة بوجه عام. ووُضعت القواميس والمعاجم وكتب قواعد اللغة للحضارات الأفريقية والأسيوية. فانتشرت ثقافاتها داخل المركز الأوروبى وأثرت فى أدبه وثقافته كما يظهر ذلك فى الحركة الرومانسية الإلمانية وتأثرها بسعديا وحافظ والرومى.

ثم تحول الاستشراق اللغوى إلى الاستشراق الأنثروبولوجى والاجتماعى بالتركيز على الإنسان الأفريقى الأسيوى، عاداته وسلوكياته ومنظومات قيمه، وذاكرته، ورؤيته للعالم حتى يمكن الاستيلاء عليه إلى الأبد بعد حركات الاستقلال الوطنى، والتحول من الاستعمار العسكرى والاقتصادى المباشر الوقتى إلى الاستعمار الثقافى والحضارى الأبدى عن طريق الفرانكفونية والأنجلوفونية والهسبانوفية والبرتغافونية. حدث فى كندا والمكسيك ودول أمريكا اللاتينية والهند والفلبين ومعظم دول أفريقيا.

ثم تحول الاستشراق الأنثروبولوجى الاجتماعى إلى الاستشراق السياسى بعد الصحوة الإسلامية والثورة الإسلامية فى إيران، وانتشار الإسلام فى أوروبا، وظهور دول إسلامية مثل ألبانيا والبوسنة والهرسك فى شرق أوروبا. فبدأ التعامل مع الظاهرة الإسلامية والحركات الإسلامية الممثلة لها، ومستقبل الإسلام السياسى. وانضم الجيل الجديد إلى المستشرقين التقليديين علماء السياسة. وتم التحول من دراسة الماضى إلى الحاضر من أجل التنبؤ بمستقبل هذه المنطقة، وإعداد سيناريوهات المستقبل للسيطرة عليها حتى لا يؤخذ الغرب على غرة كما حدث فى الثورة الإسلامية فى إيران. وانتشرت المؤلفات عن الإسلام السياسى. وعقدت مئات المؤتمرات الدولية والندوات المحلية والإقليمية فى الموضوع لمعرفة ماذا يجرى فى العالم الإسلامى الآن. وهل هى صحوة تريد العودة إلى الخلف؟ وكيف يمكن إجهاضها وهى فى بدايتها حتى لا تكوّن قطبا ثانيا فى مواجهة القطب الأوحد بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية باسم العولمة، والقضاء على المصالح الغربية على حدوده الجنوبية والشرقية، النفط وعوائده، والمواد الأولية والأسواق، والموقع الاستراتيجى، وإسرائيل إذا ما عادت الحرب الباردة، وعاد الاستقطاب؟

ثم تحول الاستشراق السياسى إلى الاستشراق الصحفى عندما تحول الإسلام إلى بضاعة رائجة، وأصبح على كل لسان. حدث ذلك بعد الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ لإشباع نهم الغرب لمعرفة ما هذا الإسلام الذى استطاعت إحدى تنظيماته، القاعدة، تدبير مثل هذا الهجوم المباغت على أهم مدينتين، نيويورك وواشنطن، فى أقوى دولة فى العالم، الولايات المتحدة الأمريكية، وتدمير رموزها، مركز التجارة العالمى، ووزارة الدفاع أى المجمع الاقتصادى والعسكرى؟ واختلط الاستشراق بالإعلام، وأصبح الإعلاميون كبار المستشرقين يملئون الصحف والعواميد الخاصة، وافتتاحيات رؤساء التحرير بمقالات وأحاديث، ومقابلات عن الإسلام والمسلمين، وعلاقة الإسلام بالغرب وخطر الإسلام، والعنف والجهاد فى الإسلام. وتحول الاستشراق من قراءة النص إلى تحليل الواقع الاجتماعى والسياسى للمسلمين، من وصف التاريخ إلى وصف منظومة القيم الإسلامية ورؤية الإسلام للعالم، وإصدار الأحكام المطلقة على جوهره وحقيقته. وانتشرت مناهج الملاحظة والمقابلة بدعوى الرغبة فى معرفة "الإسلام الحى" الذى يعيشه الناس. يحدد تصورهم للعالم، ويعطيهم قواعد للسلوك.

والأخطر من ذلك كله، تحول الاستشراق الصحفى إلى الاستشراق السياحى. فقد انضم إلى جوقة الصحفيين جوقة أخرى من الأساتذة الشبان بل وطلاب الدراسات العليا للحضور إلى العالم الإسلامى وملاحظة ما يدور فيه والحديث مع بعض علمائه ومثقفيه وقادته وسياسييه، ولو أمكن بعض أمراء الجماعات الإسلامية وأعضائها لحكاية تجاربهم وقص حياتهم. هى دراسات حية أكثر تشويقا من الاستشراق التاريخى اللغوى القديم. بل تحولت معظم أقسام الدراسات الإسلامية والعربية فى الجامعات الغربية إلى أمثال هذه الدراسات المعاصرة، وتم الانتقال من المتنبى إلى سيد قطب، ومن ابن سينا إلى محمد عبد السلام فرج، ومن

ابن رشد إلى أريكان، ومن المعتزلة إلى القاعدة، ومن الأشعرية إلى جماعات الجهاد. وانضمت دور النشر إلى المهرجان، تدعم الباحثين الشبان بالمال. وتحدد لهم موعد إنهاء الدراسة بستة شهور أو سنة على أكثر تقدير لإعداد أنجح كتاب عن الإسلام والمسلمين وأوسعها انتشارا. فتربح الملايين. لا فرق بين المنطق الإسلامى والبساط السحرى، بين مؤلفات الفارابى وعالم الحريم، بين رسائل إخوان الصفا وألف ليلة وليلة. وهرع الأساتذة الشبان من جميع التخصصات من العلوم السياسية والاجتماعية والأدبية واللغوية والدينية وتاريخ الأديان لملء فراغ السوق بعد أن راج الكتاب الإسلامى. وصدرت عشرات الطبعات له. وكسب المؤلف والدار. وعمت الأفكار المسبقة، وأطلقت الأحكام النمطية. وضم إلى الكتاب بعض الصور المثيرة عن عصر الحريم وبذخ الأغنياء، الخيمة والقصر، الجمل والمرسيدس. هجر معظم الباحثين الشبان العلم. تركوا الجامعات. وعملوا فى دور النشر وبعض مؤسسات الرأى العام. يتطلعون للشهرة والكسب بعيدا عن الكتب العلمية غير الرائجة وبطالة العلماء وأساتذة الجامعات.

العصر عصر الإعلام، والاتصالات، والثقافة الاستهلاكية، والوجبات السريعة. وتدخلت رؤوس الأموال الأمريكية والصهيونية والمحافظين الجدد لنشر مثل هذه الكتب تحقيقا لمقولة صدام الحضارات، وإخراجها من عمل الخاصة إلى شغل العامة. وتم الترويج لبعض الصور النمطية عن الإسلام والعنف والإرهاب والتخلف وتهميش المرأة وانتهاك حقوق الإنسان والتسلط والقهر. فيزداد العداء للإسلام والمسلمين، ويُسخر من رموزه وشعائره كل يوم فى أجهزة الإعلام. ويُثار غضب المسلمين ويتظاهرون ويحتجون. ويكسب الغرب من جديد. وينصب نفسه حاميا لحرية التعبير والرأى أمام فتاوى قتل الروائيين والسينمائيين والإعلاميين التى يصدرها علماء المسلمين تأكيدا لسلطتهم الدينية والسياسية، والقدس لا تجد من

يدافع عنها أو يفتى بعدم جواز الصلاة فى الدار المغصوبة كما أفتى القدماء. فيبتعد المسلمون عن قضاياهم الوطنية ويصبح الإسلام محاصرا بين أعدائه وجهل علمائه وعجز أبنائه.

obeikandl.com

٢- هل تعود أوروبا لاستقلالها؟

بدأ تصدع الجبهة المعادية للحكومة الفلسطينية. وبدأ الحلف الأوروبى الأمريكى الصهيونى فى التفكك بعد تشكيل حكومة الوحدة الوطنية، وتعيين وزراء الخارجية والداخلية والمالية من المستقلين لإزاحة ذريعة مقاطعة حماس. وأصبح موقف الرباعية أكثر تفهما لحاجات الشعب الفلسطينى وتطلعاته لحياة كريمة. وبدأت البلاد الشمالية وفى مقدمتها النرويج بكسر هذا الحصار بالتعامل مع حكومة الوحدة الوطنية. فالسلطة الوطنية وليدة أسلو. وكانت روسيا من قبل قد كسرت الحصار بالتعامل مع حماس. وهى الصديق التقليدى لحركات التحرر الوطنى فى العالم الثالث.

فكيف تسترد أوروبا استقلالها عن الولايات المتحدة الأمريكية، وتستعيد ثقتها بنفسها، وتسترد قيادتها التقليدية للعالم قبل بزوغ نجم الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ووراثة أوروبا فى السيطرة على مستعمراتها بل واحتلال أوروبا نفسها بزرع القواعد العسكرية فى ربوعها خاصة فى ألمانيا؟ كيف يعود إلى أوروبا وعيها المفقود باستقلالها الذى طالما دافعت عنه فى فلسفاتها منذ ديكارت وكانط وفشته وياور وهوسرل وبرجسون خاصة فى ألمانيا وهى التى تتبع فى سياستها الخارجية الانحياز إلى الولايات المتحدة؟

(*) الاتحاد: ٧ أبريل ٢٠٠٧، الدستور: ١٠، ١٢ أبريل ٢٠٠٧، الزمان: ٥ أبريل ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ١٥ أبريل ٢٠٠٧.

لقد سببت سياسة انحياز أوروبا إلى الولايات المتحدة خسارة كبيرة لأوروبا وأمريكا ولباقى شعوب العالم. فقد زادت كراهية العالم الثالث لأوروبا بعد انضمام بعض دولها خاصة بريطانيا إلى قوات الغزو الأمريكى للعراق وأفغانستان، وبعد أن ظنت أن حركات التحرر الوطنى قد نجحت فى الحصول على الاستقلال، وتأسيس الدول الوطنية المستقلة. عادت أوروبا إلى إرثها الاستعمارى بتحالفها مع الولايات المتحدة بعد أن ظنت الشعوب المستعمرة أنها تخلت عنه بعد هزيمة فرنسا فى فيتنام والجزائر وانسحاب باقى القوات البريطانية والبرتغالية والأسبانية والهولندية والإيطالية من المستعمرات خارج حدودها. كما جعلت شعوب العالم الثالث تكره الغرب، ثقافة وحضارة ومدنية ومُثُلا وقيما وتراثا. ووحدت بين أوروبا الحضارية وأوربا الاستعمارية الجديدة. وعادت التنوير الأوروبى، ومبادئ الثورة الفرنسية، الحرية والإخاء والمساواة، والذى طالما كان نموذجا لفجر النهضة العربية فى القرن التاسع عشر سواء فى الإصلاح الدينى عند الأفغانى أو فى الفكر الليبرالى عند الطهطاوى أو فى التيار العلمى العلمانى عند شبلى شميل. ووقفت أوروبا عاجزة عن الدفاع عن إرثها التقليدى ومناطق نفوذها فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وتنازلت عنه طواعية للقوة الأمريكية الجديدة الصاعدة. وهى بتحالفها معها الآن تريد أن تسترد بعضا من عنفوانها الإمبراطورى التقليدى منذ غزوها للهند والقضاء على إمبراطورية المغول. تلحق بذيل الولايات المتحدة بعد أن كانت فى مقدمتها. لم تستطع أوروبا كبح جماح المحافظين الجدد الطامحين لإنشاء الإمبراطورية الأمريكية الجديدة كوعد إلهى بإعطائها العالم كله تجاوزا للوعد الإلهى الذى يعطى إسرائيل ليس فقط فلسطين بل أيضا إسرائيل الكبرى، من النيل إلى الفرات. لم تستطع أوروبا ممثلة فى أنظمتها السياسية وليست فى شعوبها، تحسين صورة الغرب الأمريكى، وهى تشارك معه جغرافياً فى اسم الغرب، وأمريكا تحارب

الحركات الدينية فى كل مكان بدعوى الإرهاب والعنف وكراهية الولايات المتحدة.

متى تسترد أوروبا استقلالها الدفاعى، وتطالب بتفكيك القواعد العسكرية الأمريكية من على أراضيها وسجونها السرية للمخطوفين السياسيين بدعوى القضاء على الإرهاب ومحاكمة الإرهابيين كما هو الحال فى سجون جوانتنامو وأبى غريب؟ لقد انتهى الخطر الأحمر وراء الستار الحديدى الذى من أجله أقيمت هذه القواعد وحلف شمال الأطلنطى بانتهاء الحرب الباردة، وسقوط الأنظمة الاشتراكية، واستتباب الأمر لعالم ذى قطب واحد، وعولمة جعلت العالم كله سوقا لمجموعة الدول الثمانية التى لا يستطيع أن ينافسها أحد مما أدى إلى احتكار معظم الإنتاج الصناعى الثقيل فى العالم.

إن أوروبا جغرافياً وسط العالم القديم. تقع فى منطقة متوسطة بين أفريقيا جنوبا والبلاد الاسكندنافية شمالا وروسيا شرقا. وبين هذه الجهات الثلاث هناك اتصال أرضى بين أوروبا والشمال، وبين أوروبا والشرق، واتصال بحرى عبر البحر الأبيض المتوسط جنوبا والذى لا يبعد شاطؤه الشمالى فى أسبانيا مثلا عن شاطئه الجنوبى فى المغرب أكثر من عشرين كيلومترا فى مضيق جبل طارق أو مائتى كيلومتر بين جزيرة جربة فى تونس وجزيرة صقلية فى جنوب إيطاليا. أما فى الغرب فيفصل أوروبا عن الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من خمسة آلاف كيلومتر. يفصلها المحيط الأطلنطى بأكمله. أوروبا وآسيا وأفريقيا فى نصف الكرة الشرقى، وأمريكا فى نصف الكرة الغربى. فالأقرب إلى أوروبا جغرافياً الضفة الجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط وشرق الأورال فى آسيا ابتداء من أوروبا الشرقية. أفريقيا وآسيا خاصرتان لأوروبا فى الجنوب والشرق . ربط أوروبا بآسيا طريق الحرير، من الصين حتى البندقية. وربطت أوروبا بشمال أفريقيا فرنسا فيما وراء البحار، وبأفريقيا تجارة العبيد.

وأوروبا تاريخيا وحضاريا على علاقة بمحيطها الإقليمى منذ آلاف السنين قبل الهجرات الأوروبية إلى العالم الجديد بعد كولومبوس منذ ما يزيد قليلا على خمسة قرون. كانت اليونان القديمة على صلة دائمة بمصر كعبة العلم، وبالشام، أرض كنعان، وببابل وآشور وحضارات ما بين النهرين كما عرض مارتن رينال أخيرا فى "أثينا السوداء". والعلاقات بين فارس والهند وأوروبا منذ قديم الزمان حتى أن اللغات الأوروبية تسمى اللغات الهندية الأوروبية فى مقابل اللغات السامية. كانت أوروبا فى النهضة الحديثة فى أفريقيا وآسيا نموذجا للتحديث، فى تركيا ألمانيا، وفى الهند وفى السودان واليمن والخليج بريطانيا. وفى المغرب العربى وسوريا ولبنان فرنسا. ولم تظهر أمريكا فى المنطقة العربية إلا بعد الثورات العربية الأخيرة فى منتصف خمسينيات القرن الماضى، وفرض سياسة الأحلاف على القوى السياسية الجديدة التى مثلها الضباط الأحرار، حلف بغداد، الحلف الإسلامى، وسياسة المحاور، محور الرياض- طهران- كراتشى. بدأت أمريكا بإدانة العدوان الثلاثى على مصر، وإنذار ايزنهاور الشهير المتزامن مع الإنذار الروسى. ثم عادت الولايات المتحدة حركة التحرر العربى الممثلة فى القومية العربية، وأيدت تأييدا مطلقا إسرائيل وحروبها التوسعية حتى الآن.

كانت لأوروبا رسالة حضارية فى عصورها الحديثة، القضاء على الإقطاع والملكية والكنيسة ومحاكم التفتيش وكل رموز القهر والتسلط. واعتمدت على العقل لفهم قوانين الطبيعة التى يمثلها نيوتن وفى قوانين المجتمع ونظرية العقد الاجتماعى الذى يمثلها روسو. ودافعت عن قيم الحرية والديموقراطية. وفيها تم الإعلان الأول والثانى لحقوق الإنسان والمواطن. وقد جسدتها أيضا مُثُل التنوير: العقل والحرية والطبيعة والمساواة والتقدم والتحديث. وقد قامت الثورة الأمريكية على هذه المثل كما عبر عنها الدستور الأمريكى ووثيقة الاستقلال. أما أمريكا فلم

تكن لها منذ نشأتها رسالة. إنما قامت منذ البداية على الغزو والنهب والسلب واستئصال الشعوب الأصلية والعبودية والبحث عن الذهب. ومازالت صورة الأمريكى فى أذهان الناس، صورة راعى البقر والمسدسات وسرقة الأبقار واغتيال أصحابها. قارة زرع فيها الرجل الأبيض حضارته، وشعب بلا وعى تاريخى. لا يدرك إلا الآنى. عقدته الشعوب ذات الحضارات العريقة مثل مصر والعراق والصين.

أوروبا هى التى اكتشفت أمريكا بداية من أسبانيا بعد أن غادرها المسلمون وسقطت غرناطة، بفضل خرائط العرب ونظرياتهم فى كروية الأرض. والأوروبيون هم الذين عمروها وصنعوها وجعلوا منها القوة الأولى فى العالم. فكيف يكون الأصل تابعا للفرع، والأب تابعا للابن؟ أمريكا من صنع المهاجرين والمغامرين الأوروبيين، فكيف يكون الأوروبيون عبيدا لما صنعوه بأيديهم، عبدة للأصنام؟ إن أمريكا الأسطورة التى بنتها نفسها كما فعلت إسرائيل غير أمريكا الواقع والحقيقة. أمريكا القوية ينخر فيها الضعف، ضعف المبادئ والسياق اللاأخلاقى الذى يتم فيه استعمال القوة. أمريكا بوتقة الانصهار تمارس أبشع أنواع التمييز العنصرى طبقا للون بين السود والملونين والبيض، وتقتل أنصار الحقوق المدنية والمساواة بين الأعراق مثل مارتن لوثر كينج. ويمارس أنصار كلوكلس كلان أبشع أنواع الاضطهاد العنصرى باسم الدين وحماية له. تدافع عن الحرية وتقضى على الحريات العامة كما حدث فى عصر مكارثى. تؤسس الديموقراطية وتتجسس على أحزاب المعارضة كما هو الحال فى حادثة "ووترجيت" الشهيرة. تدافع عن قيم العالم الحر وتغزو أفغانستان والعراق. تهدد إيران وسوريا، وتعبث بمصالح لبنان والسودان. تحكمها المصالح ورجال الأعمال والشركات الكبرى، والمجمع الصناعى العسكرى والهوس الإمبراطورى وجماعات الضغط والمنظمات الصهيونية.

فما لأوروبا وهذا كله؟ ألا تستطيع أوروبا أن تفك الارتباط مع هذه القوة الغاشمة الجديدة وتعود إلى أصولها التاريخية والثقافية، وتسترد موقفها السياسى باعتبارها ميزان الثقل فى العالم، وسطا بين الشرق والغرب مثل الوطن العربى، لا يميل شرقا أو غربا؟ عندئذ يعود للعالم اتزانه، وللعقل حركته، وللحقيقة نبضها.

obeikandl.com

٣- هل تستطيع أوروبا أن تحاور غيرها؟

فى زيارة على مدى عشرة أيام لبعض المعاهد الأوروبية لدراسات الشرق الأوسط والجامعات المنتمية لأكبر المؤسسات الدينية لتعزيز الحوار بين الضفة الشمالية للمتوسط والضفة الجنوبية، وبناء على التجارب الحية وليس تحليل الوثائق والبيانات والإحصائيات والمصادر والمزاجع، يمكن القول بأن نفس المشكلة مازالت باقية لم تتغير، مشكلة الحوار العربى الأوروبى أو بين الشمال والجنوب أو بين الإسلام والغرب كما جرت العادة فى التسمية الجديدة. ويقصد بالإسلام المسلمون، وبالغرب الدول الغربية على اختلاف نظمها السياسية ومواقفها من الهجرة من المغرب العربى، خاصة المغرب الأقصى.

ليست القضية هو الخلاف حول جدول الأعمال، الاقتصاد فى الجانب الغربى، فتح الأسواق وتنظيم العمالة المهاجرة، وإسقاط الحواجز الجمركية طبقا لقوانين السوق والمنافسة الحرة كما تفرض ذلك الآن العولمة. والسياسة فى الجانب العربى، وفى مقدمتها فلسطين والحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى فى إقامة دولته المستقلة وانسحاب إسرائيل إلى حدود ١٩٦٧ بما فى ذلك القدس. وليست القضية تعارض المصالح بين الشمال والجنوب، الشمال يريد السيطرة كشرط للتنمية، والجنوب يريد التنمية دون شروط مع المحافظة على الاستقلال. ليست القضية الحوار على الأمد القصير والمصالح العاجلة كما يريد الغرب أو الحوار

(*) الاتحاد: ٢١ يوليو ٢٠٠٧، الدستور: ١٩ يوليو ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٢٢ يوليو ٢٠٠٧.

الاستراتيجي على الأمد الطويل في شراكة تقوم على الجوار والتعاون الإقليمي كما يريد العرب. وليست القضية هي الخلاف الثقافي والحضاري في رؤى العالم والإدراك المتبادل بين الطرفين القائم على صراع تاريخي مازال يؤثر في اللاشعور منذ الحرب الصليبية حتى الاستعمار الحديث. بل القضية هو اعتراف أوروبا بالآخر، والتسليم بوجود طرف محاور متكافئ. فأوروبا لا تعترف إلا بنفسها. ولا تحاور إلا ذاتها. هي الطرف والطرف الآخر في نرجسية حضارية تاريخية شديدة. الآخر هو مجالها الحيوي والمحقق لحاجاتها، وامتداد لنشاطها. أوروبا هي الأنا والآخر، الذات والغير، الشمال والجنوب، الموافق والمعارض، المماثل والمختلف.

ويقبع ذلك في اللاوعي الأوروبي المتراكم عبر التاريخ منذ أن أصبحت أوروبا مركزا للعالم بعد سقوط غرناطة في ١٤٥٤ والذهاب إلى ما وراء الأطلنطي إلى نصف الكرة الغربي وإلى جزر الهند الشرقية عبر جنوب أفريقيا إلى نصف الكرة الشرقي. وامتدت جنوبا إلى أفريقيا بدعوى اكتشافها. أصبحت أوروبا مركزا جغرافيا للعالم وتراكما حضاريا في التاريخ، وإبداعا علميا بعد ترجمة العلوم العربية والإسلامية قبيل عصر النهضة. واستند ذلك كله إلى عنصرية بيضاء تقوم على التفرقة بين البشر طبقا للون البشرة، الأبيض والأسود والأسمر والأصفر. وصاغت النظريات العنصرية في طبيعة الأجناس البشرية وخصائصها النفسية والثقافية في علم نفس الشعوب والتي بلغت أوجها في القرن التاسع عشر، ذروة الاستعمار الأوروبي. فالجنس الأبيض الآري هو الذي له حق السيادة على باقي الأجناس السامية الأخرى. ولا يختلف الاختيار العرقي والتفوق في الأجناس عن الاختيار الإلهي الذي غذته اليهودية في صياغتها الصهيونية بعقائد شعب الله المختار وأرض المعاد والمدينة المقدسة والمعبد والهيكل. ومازال هذا الدافع وراء الغزو المستمر لأوروبا لغيرها، والانتشار خارج حدودها. فالعالم كله مجالها الحيوي، وإسرائيل مركزها.

والعالم الجديد، أمريكا، خير وريث لها، بلا تاريخ ولا جغرافيا. ووقع التنافس بين العالم القديم والعالم الجديد. كل منهما لا يعترف بالآخر فى اللاوعى الشعورى بالرغم من التعاون الخارجى والأحلاف والحروب المشتركة. أوروبا هى التاريخ، والولايات المتحدة هى الجغرافيا فى نظر الأوروبيين. وأمريكا هى القوة والمركز الجديد لإمبراطورية ممتدة إلى كل أرجاء المعمورة بما فى ذلك أوروبا القديمة. أمريكا هى الفتى الشاب الذى يرث أوروبا العجوز وإسرائيل فى قلب الاثنين، والقرابة المشتركة بينهما.

فى طريقة الاستقبال والتوديع، مازال العربى الوافد، الطرف الثانى للحوار، هو الغريب القادم. على وجهه ينعكس العنف والإرهاب والهجرة والبحث عن العمل والرزق والكسب. وجوده خطر، وحضوره يقضى على الهوية الأوروبية وتماثل أوروبا مع نفسها. حضركى يتم الحوار ولكنه حضور مهمش، زائد، لإكمال الشكل، واستيفاء العدد. لا يسمع الأوروبى ولا يريد أن يعرف أو يعى أن العالم يتغير، وأن ميزان القوى يتبدل. لم يعد لديه شىء يقوله. نسى تاريخه، وفقد ذاكرته. يقرأ من ورق. ولا ينظر إلى الآخرين لأنه لا يرى إلا نفسه، ولا يتحدث إلا إلى ذاته. لم تعد له قضية إلا الاستمرار فى الصدارة بخلق أساطير جديدة مثل ما بعد الحداثة، والعولمة، وثورة الاتصالات، والعالم قرية واحدة، وصدام الحضارات، ونهاية التاريخ. ومهما حاول الطرف الآخر التوضيح والكشف عن البديل وفتح آفاق جديدة للتفكير فإن الرسالة لا تصل. وإن وصلت اندهش الأوروبى من هذا الذى يعيد للأوروبى ذاكرته وهو فى بداية عصوره الحديثة، النهضة والتنوير، وكأنه يسمع جديدا ويعجب بهذا الصوت الحالم البعيد الذى مازال فى بداية الطريق ومازال أمامه شوط بعيد كى يقطعه. ولا يمثل خطرا مباشرا عليه إلا فى الخيال ومعارك الصور الذهنية والبدائل الحضارية.

إن معركة التحرر لم تنته بعد. فليس الاستعمار فقط هو الاحتلال العسكرى والاستغلال الاقتصادى، والتبعية السياسية بل أيضا الهيمنة الثقافية والسيادة الحضارية. فإذا كان المغلوب مازال مولعا بتقليد الغالب كما لاحظ ابن خلدون وكما هو مشاهد أحيانا فى المغرب العربى فإن الغالب أيضا لم يتخل عن تصوره للمغلوب، أنه كان سيدا عليه فى الماضى بالاحتلال العسكرى، ومازال سيدا عليه فى الحاضر فى التنمية والمساعدة الخارجية. وسيظل سيدا عليه فى المستقبل نظرا لأبدية العلاقة النفسية والذهنية بين السيد والعبد. لم تتغير صورة الغالب عن نفسه حتى بعد مرحلة التحرر الوطنى واستقلال الشعوب. وصورة المغلوب الذى أصبح غالبا فى ذهنه لم تتغير. استبدل بالسيد الغربى السيد الوطنى، وبالنهب الخارجى الفساد المحلى، وبالسيادة بالقوة الجبرية السيادة الاختيارية بطلب الحماية وإقامة القواعد الأجنبية والمشاركة فى التمرينات العسكرية.

ومهما حاول الجنوب التحرر من جديد من هذا الأسر التاريخى، ومهما حاول العربى إثبات وجوده كطرف محاور إلا أنه سيظل يتحرك فى المكان. لقد أخذت أوروبا فى بداية عصر نهضتها العلم والحضارة منه وأنكرته بل وأعطته الهيمنة والاستعمار بكل أشكاله القديمة والجديدة، جزاء سنمار. ومهما حاول العربى أن يُسمع صوته ويبين رؤية الجنوب إلى الشمال فى مقابل رؤية الشمال للجنوب فإن الشمال لا يسمع لأنه لم يتعود على أن يكون موضوعا للرؤية. أوروبا هى التى ترى وتلاحظ وتحلل. وغيرها هو الموضوع. هو الذى أنشأ المتاحف ووضع حضارات الآخر فيه. هو الذى أنشأ الدراسات الصينية والهندية والفارسية والبابلية والآشورية والمصرية القديمة والعربية والإسلامية. أما هو نفسه فهو ليس موضوعا للدراسة. لا يوجد متحف لأوروبا. فأوروبا ذات وليست موضوعا. مازالت حية، وباقية إلى الأبد لا تموت حتى تصبح موضوعا للمتاحف والأثريات.

وقد دافعت الإمبراطورية العثمانية عن سواحل المغرب العربى حتى الجزائر وحررت ثمان مدن وهى فى أوج انقضاض الغرب على "الرجل المريض" وتقطيع أوصاله. وبعد حركات التحرر بقى الوعى الأوروبى وعيا استعماريا يعاود هيمنته كلما ضعف الآخر، لا فرق فى ذلك بين أسبانيا ممثل الاستعمار القديم وأمريكا ممثل الاستعمار الحديث.

فى هذا الإطار التاريخى يمكن قراءة زيارة ملك أسبانيا للمدينتين المغربيتين المحتلتين، سبتة ومليليه بعيدا عن تراثها الجمهورى الحديث أثناء الحرب الأهلية وتراثها الأندلسى القديم أثناء حكم العرب والمسلمين والذى مازالت تفخر به أمام العالم فى غرناطة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة. وماذا عن إعلان برشلونة الذى أصبح نموذجا للتعاون بين دول البحر الأبيض المتوسط؟ وماذا عن عودة الروح إلى أسبانيا عن طريق الأندلس الجديدة واعتزازها بثمانية قرون من التراث العربى الإسلامى؟

إنه الوعى الأوروبى الاستعمارى يتفجر من جديد بعد نكوص الحركات الوطنية والتفريط فى مكتسباتها، وتحولها إلى نظم سياسية قاهرة للداخل وتابعة للخارج. وقد بدأ ذلك بالاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق، واحتلال إسرائيل لكل فلسطين وتهديد إيران وسوريا وحزب الله، محور الشر، والعمل على تفتيت السودان والصومال، وتحويل الوطن العربى والعالم الإسلامى إلى دويلات طائفية وعرقية ومذهبية تصبح إسرائيل بينها دولة يهودية كما صرح بذلك رئيس وزرائها وليست مجرد دولة علمانية حديثة، تقوم بدور مصر فى تحديث الوطن العربى، وتأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية المحلية للمنطقة وليست من أساطير المعاد القديمة، شعب الله المختار وأرض المعاد.

إن زيارة ملك أسبانيا للمدينتين المغربيتين المحتلتين رمز وإشارة. رمز على أن الوعى الأوروبى الاستعمارى لم ينته بعد. وإشارة على أن استمرار الهجرات

المغربية إلى أسبانيا، والعربية إلى أوروبا هو احتلال غير مباشر وفتوحات جديدة من الجنوب فى الشمال عن طريق العمالة المهاجرة، فى حاجة إلى حركة "استرداد" جديدة، ومد من الشمال إلى الجنوب. وإذا كان "الإرهاب" الإسلامى قادما من الجنوب إلى الشمال فإن "الاستعمار" الغربى قادم من الشمال إلى الجنوب. وقد تكون عودة أوروبا إلى وعيها الاستعمارى القديم أحد الحلول لحل أزمات أوروبا الداخلية، فقد الروح وخواء النفس، وما سماه بعض الفلاسفة "أفول الغرب" أو "أزمة الوعى" أو "قلب القيم". فإذا كان المشروع الأوروبى القديم لا يستهوى الأجيال الجديدة، أكبر قدر ممكن من الإنتاج لأكبر قدر ممكن من الاستهلاك لأكبر قدر ممكن من السعادة، فلعل الوعى الاستعمارى القديم للمحافظين الجدد والباحثين عن الذهب من الذين عبروا المحيطات إلى نصف الكرة الغربى، يعطى دفعة جديدة لأوروبا. وقد تُوقفه حركة تحرر عربى وطنى ثانية لرد الهجمة الاستعمارية الجديدة. إنما تستطيع الأجيال الجديدة أن تبدأ عصورا حديثة أوروبية جديدة، خالية من المعيار المزدوج، الحرية والتحرر لأوروبا، والهيمنة والتسلط على غيرها، وتعمل لأجل إنسانية واحدة، دون مركز ومحيط، وشمال وجنوب، وغرب وشرق.

٦- العنف الأمريكي في الداخل أيضا

العنف الأمريكي ليس في الخارج وحده، العدوان على العراق وأفغانستان، والسودان وليبيا من قبل، وتهديد لبنان وسوريا وإيران والصومال بالتدخل. فهي شرطي العالم الذي يفرض قانونه بالعصا على كل من يشق عصى الطاعة على "فتوة" الحي. وما يحدث في الخارج من عدوان على الشعوب يحدث في الداخل أيضا بالعدوان عليه من مواطنيه. فالمجتمع مفرغ من الداخل. وبقدر ما تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية القوة ضد الخارج، القوة المنظمة بالجيوش وأسلحة الدمار الشامل، تستعمل القوة ضدها في الداخل بنفس العدوانية وقتل الأبرياء. الجريمة المنظمة في الخارج تقوم بها الدولة، والجريمة المنظمة في الداخل يقوم بها الأفراد.

هذا ما حدث منذ شهر تقريبا في ولاية فرجينيا في كلية الهندسة بمدينة بروزبرج عندما أطلق مهاجر أمريكي من أصل كوري جنوبي النار على الطلاب والأساتذة فقتل اثنين وثلاثين من الأمريكيين والأجانب بدم بارد مع سبق الإصرار والترصد، وتسجيل العملية منذ بدايتها بالصوت والصورة في مجتمع يعشق الإعلام ويقدسه.

اندماج المهاجرين حتى من الجيل الثاني لم يتحقق. وبوتقة الانصهار التي أرادتها أمريكا مجرد أسطورة. فالمجتمع مازال فسيفساء من المهاجرين طبقا للون والأصل العرقي وعلى مراتب كما هو الحال في نظام الطبقات في الهند. أعلاها

(*) الاتحاد: ١٢ مايو ٢٠٠٧، الدستور: ١٠ مايو ٢٠٠٧، الزمان: ٩ مايو ٢٠٠٧، العربي الناصري: ١٣ مايو ٢٠٠٧.

الأنجلوسكسونيون البيض البروتستانت الذين هاجرا أول مرة من بريطانيا واستقروا على الساحل الشرقى حيث السلطة والمال. ثم تتراتب الطبقات من الأعلى إلى الأدنى، الألمان، والإيطاليون طبقا لطبقاتهم الأصلية فى أوروبا. ثم يأتى فى ذيل القائمة الأسبان ثم السود. مع أن الأسبان هم الذين اكتشفوها، والسود هم الذين بنوها بعد أن تم اصطيادهم من أفريقيا عبيدا ليحلوا محل الملايين من السكان الأصليين الذين تم استئصالهم. ومن تبقى منهم وضعوا فى محميات للسياحة ولاستوديوهات هوليود. لم يندمج القاتل من أصل أسيوى فى المجتمع الأمريكى. وشتان ما بين أمريكا وآسيا، بين العالم الجديد والعالم القديم، بين قارة الذهب والمال، وقارة الديانات والحضارات.

والطالب فى كلية الهندسة أى فى كلية عملية تقوم على العقل والعلم. عاش الطالب القاتل وحيدا نفسيا لا يشارك المجتمع قيمه. عاش متوحدا مع نفسه ومتغربا مع غيره مما أدى إلى الانفصال الكامل بين الفرد والمجتمع، بين المواطن الدولة. ويبدو أن العلوم الطبيعية والرياضية لا تملأ الفراغ الروحى لدارسيها كما تفعل العلوم الإنسانية. ولا تشبع فيهم البحث عن معانى الحياة والوجود والمصير. إنما يظهر التنظيم الهندسى فى الجريمة المنظمة التى تقوم بها أمريكا فى الخارج عن طريق أجهزة الاستخبارات والجيوش النظامية. ويقوم بها الأفراد فى الداخل عن طريق الإعلام وأجهزة التسجيل الصوتى والمرئى. وهى ليست حادثة فردية معزولة بل نمطا سلوكيا أمريكيا فى رفض المجتمع وقيمه، والدولة ونظامها كما حدث من قبل فى تفجير المبنى الفيدرالى الأمريكى فى أوكلاهوما من أمريكى أبيض تيموتي ماكفاى. لا يعترف إلا بالقوة الفردية واستقلال الولاية. والقاتل الانتحارى الجديد يستأنف عملية القتل التى تمت فى جامعة كولومبيا. دبرها أيضا أمريكيان أبيضان، ديلان كليبولد وأريك هاريس. ولن تكون الأخيرة طالما

وأدب الأطفال رائج بطبيعته فى الغرب. فهو تأليف من القلب والخبرة الذاتية والواقع وليس من مصادر ومراجع ومعاجم وقواميس، وتجارب وقياسات علمية. والكتابة من القلب أفضل من الكتابة الموثقة. الأولى للعامة، والثانية للخاصة. الأولى علمية، والثانية أدبية. والخيال الإنسانى فى أدب الطفل يفوق الخيال العلمى فى أدب الشباب. والكاتبة امرأة. وهو فى حد ذاته يفتح لها الأبواب لما للحركة النسائية فى الغرب من حظوة ولما للأدب النسائى من أنصار وهى شقراء بها مسحة من جمال قديم، نموذج المرأة الأوروبية.

واستحوذ الكتاب المطبوع على لب القراء بطبعته المجلدة الفاخرة مع صورة الغلاف التى تشد الانتباه، صورة البطل التلميذ البرئ الهمام، القادر على الاستحواذ على العالم بالسحر، وشد انتباه معلميه ومجتمعه، وإشباع حس المغامرة فيهم، والبحث عن المستقبل، والسيطرة على مساره. وكان الوعى الأوروبى فى بداية العصور الحديثة قد نفر من الكتاب ورموزه، منطق أرسطو، فلك بطليموس، الكتاب المقدس، أقوال آباء الكنيسة لأنه يمثل سلطة القدماء على إبداع المحدثين. توجه العقل مباشرة نحو الطبيعة لتأسيس العلم الطبيعى، ونحو المجتمع لتأسيس العلم الإنسانى، دون وساطة النص. ونشأ علم نقد النصوص بوجه عام خاصة النقد التاريخى للتحرر من سلطته. وفى نهاية العصور الحديثة الآن يعود النص ليصبح مركزا للوعى الأوروبى، النص الدينى الأسيوى أو الأفريقى أو النص الشعرى أو الروائى أو النص الإسلامى، القرآن والحديث. فازدهرت علوم التأويل، وقراءة النصوص، وعلم النصوص Textology. وأصبحت الرواية أكثر الكتب مبيعا بعد الإنجيل كما أصبح القرآن بعد حوادث سبتمبر ٢٠٠١ أكثر الكتب مبيعا على الإطلاق، وذاع انتشار الكتب عن الإسلام. عقيدة وشريعة، دينا وثقافة، علما وحضارة، فنا ورؤية، مثل "إحياء علوم الدين" فى أندونيسيا بعد البخارى. وجد

الوعى الأوروبى فى الكتاب المدون نصرا جديدا أو تكئة قوية لاستنهاض ذاته، والعثور على بؤرة جديدة له بعد أن قضت ما بعد الحداثة والتفكيكية على البؤرة القديمة فى بدايات عصر النهضة، العقل والطبيعة.

ثم تلقفه الإعلام الذى يصنع الحقائق بطريقة روايتها وتوجيه الخبر والتعامل معه. والإعلام هو صانع الرأى العام والمؤثر فى انتخابات الجماهير والموجه لسلوكهم فى الحياة الخاصة والعامة. فالحقيقة هى كيفية روايتها وكيفية الرواية قائمة على الأهداف غير المعلنة والتى قد تغطى على الحقيقة ذاتها لدرجة تزييف الحقائق، وتغييب الوعى، تهميش المركز ومركزة الهامش كما يحدث فى الإعلانات التجارية عندهم والفيديو كليب عندنا.

وقد كشف عن ذلك من قبل هربرت مركوزه فى "الإنسان ذو البعد الواحد" فى المجتمعات الصناعية المتقدمة. وملأت أخبار الرواية وسائل الإعلام المسموعة والمرئية، وتصدرت عناوين الصحف الرئيسية. وغطت على مآسى العالم فى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وجرائم الغرب مع إبراز جرائم العرب فى دارفور والصومال. فمازال المركز الأوروبى هو الموجه للإعلام العالمى بالعولمة وأشكال الهيمنة الجديدة أو بالغزو العسكرى المباشر، الشكل القديم.

والموضوع هو السحر. وهارى بوتر ساحر قادر على فعل الأعاجيب. فقد تشبع الوعى الأوروبى بالعلم والعقل والواقع والمحسوس. وبه الآن شغف شديد للخيال والمعجزة والأسطورة والغيب والخرافة. فقد قضى الغرب بنفسه على مثل التنوير، وقطع أنفه بيديه. هدم العقل والعلم والإنسان والمساواة والحرية والتقدم لصالح اللاعقل والخبل والخرافة والآلة والنخبة وسيطرة الأنظمة وشبكات المعلومات. ويبحث عن بطل جديد يحل محل طرازان القديم ورامبو الأمريكى الأول والثانى

والثالث. تعلم البطل السحر فى المدارس، وليس العلم. وأظهر براعته فى السحر، وليس فى العلم. ومهد الخيال العلمى السحرى للخيال السياسى، للاستيلاء على العالم والهيمنة عليه كما تفعل أنظمة المعلومات والقوى الكبرى الآن. فالوعى الأوروبى مازال قادرا على عمل المعجزات للسيطرة على العالم بعد أن رفض من قبل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وأعاجيب القديسين. وتنازل عن دفاعه المستميت القديم عن حتمية قوانين الطبيعة. وانتقل من العلم إلى السحر، ومن العقل إلى الأسطورة، ومن النهاية إلى البداية من جديد.

هل هذه نهاية حضارة وبداية أخرى؟ هل تمت دورة العود الأبدى فى مسار الحضارات؟ ما يسعى إليه الغرب من سحر وخرافة وأسطورة وإعلام وتغييب للوعى هو ما نسعى نحن الآن فى التخلص منه لصالح العلم والعقل والواقع والتقدم والتاريخ. وما ينقده الغرب من مثل التنوير فى القرن الثامن عشر هو ما نستدعيه نحن منذ الطهطاوى مركبا إياها على التراث الاعتزالى ووضعية الشريعة الإسلامية كما حددها الشاطبى.

وستسرع دور النشر العربية فى ترجمة سباعية هارى بوتر ليس بدافع مضمونها بل من أجل التوزيع والكسب السريع. وتبقى عشرات الكتب العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية لا تجد لها ناشرا إلا إذا دفع المؤلف كليا أو جزئيا مصاريف الطباعة. الكتابة والقراءة ظاهرتان اجتماعيتان تعبران عن ظروف كل حضارة ومسارها فى التاريخ. ومن يدرى فربما يُخلق "هارى بوتر" عربى، "هانى جوهر"!

٥- هل تحرر الوعي الأوروبي من الاستعمار؟

أثارت زيارة ملك أسبانيا للمدينتين المغربيتين المحتلتين سبتة ومليليه مشاعر العرب والمسلمين، وذكرتهم بماضي أوروبا الاستعماري الذي لم يتوقف حتى الآن. فالاستعمار دفين في الوعي الأوروبي. يكمن أحيانا ويتفجّر أحيانا أخرى. لم يتخلص الوعي الأوروبي في رؤيته للعالم وللآخرين من الاستعمار. فالآخر والعالم لا وجود لهما في ذاتهما إلا من خلال تأكيد أوروبا لذاتها كقوة وحيدة في العالم ووجود وحيد للذات. فلا وجود لغير المركز، والباقي أطراف. ولا وجود لأوروبا غير الحقوق وعلى الآخرين الواجبات.

لقد صدرت الحضارة الأوروبية نفسها. وأوهمت العالم من خلال تدوين التاريخ أنها حضارة الحرية والديموقراطية والعلم والتقدم والإنسان. وهي مُثُل التنوير التي جسدتها مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة: الحرية والإخاء والمساواة. كما جسدت حركة التحرر العربي في مصر وسوريا مبادئها في شعار "الحرية والاشتراكية والوحدة" بصرف النظر عن الترتيب والأولوية للحرية في مصر وللوحدة في سوريا. قدمت الحضارة الأوروبية في عصورها الحديثة نفسها بأنها ثورة ضد التسلط، وتحرر من القهر ورموزه، الكنيسة، والإقطاع في الحاضر في الدين والسياسية، وأرسطو وبطليموس والشروح العربية الوافدة في الثقافة والعلم. واستمرت الثورة في بداية العصور الحديثة ضد الملكية والرأسمالية حتى قامت

(*) الاتحاد: ٢٤ نوفمبر ٢٠٠٧، الدستور: ٢٢ نوفمبر ٢٠٠٧.

الثورات الجمهورية والاشتراكية.

ويبدو أن المعيار المزدوج كان مصاحبا من ذ البداية للوعى الأوروبى الحديث، مبادئ التحرر من التسلط، والحرية ضد القهر فقط لأوروبا والهيمنة والاستعمار والسيطرة على غيرها. فمنذ أن أصبحت أوروبا هى مركز العالم الجديد بعد سقوط غرناطة وطرد المسلمين من الأندلس انتشرت خارج حدودها الجغرافية إلى ما وراء البحار اعتماد على خرائط المسلمين ونظرياتهم فى كروية الأرض حتى وصلوا إلى النصف الكرة الغربى عبر الأطلنطى واحتلال القارتين القديمتين شمالا وجنوبا باسم الكشوف أو الاستكشافات الجغرافية، وكأن نصف الكرة الغربى لم يكن موجودا قبل قدوم الرجل الأبيض إليه، وكأن السكان الأصليين لا وجود لهم. وإن وُجدوا يُستأصلوا عن بكرة أبيهم حتى تخلو الأرض للمستعمر الجديد، وإحلال سكان آخرين محلهم، رقيق أفريقيا الذين تم اصطيادهم كالحيوانات بالملايين. منهم من غرق فى المحيط ومنهم من وصل إلى الأرض عبيدا أرقاء لتعمير الأرض.

حدث ذلك فى عصر الإصلاح الدينى عند لوثر وكالفن. فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تحرر نفسها من تسلط الكنيسة والإقطاع على يد لوثر ومونزر كانت تستعبد غيرها وتلف حول البحار، وتعبر المحيطات غربا للوصول إلى جزر الهند الشرقية أو شرقا عبر جنوب أفريقيا والمحيط الهندى وبحر الغرب من أجل الالتفاف حول العالم القديم كله. وفى عصر النهضة الذى تلا الإصلاح الدينى احتلت القوى الأوروبية الجديدة السواحل، انجلترا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال، نصف الكرة الغربى، وانجلترا جنوب أفريقيا. وقضت على إمبراطورية المغول الإسلامية فى الهند. وانضمت هولندا إلى الركب فاحتلت جنوب شرق آسيا، أندونيسيا، أكبر أرخبيل فى العالم، واحتلت أسبانيا الفلبين، وفيما بعد احتلت انجلترا ماليزيا وإيران وأفغانستان. وفى عصر الثورة الفرنسية المجيدة احتل نابليون مصر. وبلغ الاستعمار

الذروة فى القرن التاسع عشر فى وقت بلغت الرومانسية فى أوروبا أوجها والدفاع عن قيم الحرية، وما سماه لسنج "العاصفة والاندفاع" باحتلال فرنسا وانجلترا وبلجيكا أواسط أفريقيا، وفرنسا الجزائر. وبعد خسارة تركيا الحرب العالمية الأولى فى القرن العشرين وفى وقت بدأت أوروبا تكمل عصر العلم والصناعة، احتلت فرنسا وانجلترا الوطن العربى فى المشرق والمغرب، وروسيا والجمهوريات الإسلامية فى أواسط آسيا.

لم تختلف إذن العصور الحديثة رمز الحرية والتحرر والثورة ضد السلطة والتسلط عن الوعى الاستعمارى الأوروبى القديم منذ اليونان والرومان الذين استعمروا الشرق حول البحر الأبيض المتوسط واندفع الإسكندر نحو مصر والهند وأواسط آسيا والشرق لتكوين إمبراطورية يونانية تفتت بعد موته بين قواده. كما اندفع قياصرة الرومان حول سواحل البحر الأبيض المتوسط لجعله بحيرة رومانية وحررها العرب بعد ظهور الإسلام. واستأنف الصليبيون نفس الاندفاع الاستعمارى بدعوى تخليص المدينة المقدسة من أيدى المسلمين. وانتصر عليهم صلاح الدين. واستعاد أراضى المسلمين فى الشام. ثم استؤنفت الحروب الصليبية فى المغرب بعد فشلها فى المشرق. وأخرج المسلمون من أسبانيا. واحتلت مدن الساحل الشمالى الأفريقى سبته ومليلية وفى الساحل الجنوبى فى الصحراء. وأثناء حركة التحرر الوطنى قايض الأسبان الصحراء الجنوبية بالمدن الشمالية. وفضل المغرب الانسحاب من الجنوب وتأجيل الانسحاب من مدن الشمال. واحتلت انجلترا طنجة وجبل طارق كما احتلت مالطة وقبرص وقناة السويس والمنافذ البحرية خارج البحر الأبيض المتوسط فى عدن ورأس الرجاء الصالح وسنغافورة حتى تسيطر سيدة البحار على العالم من خلال السيطرة على طرق المواصلات البحرية.

وقد دافعت الإمبراطورية العثمانية عن سواحل المغرب العربى حتى الجزائر وحررت ثمان مدن وهى فى أوج انقضاض الغرب على "الرجل المريض" وتقطيع أوصاله. ويعد حركات التحرر بقى الوعى الأوروبى وعيا استعماريا يعاود هيمنته كلما ضعف الآخر، لا فرق فى ذلك بين أسبانيا ممثل الاستعمار القديم وأمريكا ممثل الاستعمار الحديث.

فى هذا الإطار التاريخى يمكن قراءة زيارة ملك أسبانيا للمدينتين المغربيتين المحتلتين، سبتة ومليليه بعيداً عن تراثها الجمهورى الحديث أثناء الحرب الأهلية وتراثها الأندلسى القديم أثناء حكم العرب والمسلمين والذى مازالت تفخر به أمام العالم فى غرناطة وقرطبة وأشبيلية وطليطلة. وماذا عن إعلان برشلونة الذى أصبح نموذجا للتعاون بين دول البحر الأبيض المتوسط؟ وماذا عن عودة الروح إلى أسبانيا عن طريق الأندلس الجديدة واعتزازها بثمانية قرون من التراث العربى الإسلامى؟

إنه الوعى الأوروبى الاستعمارى يتفجر من جديد بعد نكوص الحركات الوطنية والتفريط فى مكتسباتها، وتحولها إلى نظم سياسية قاهرة للداخل وتابعة للخارج. وقد بدأ ذلك بالاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق، واحتلال إسرائيل لكل فلسطين وتهديد إيران وسوريا وحزب الله، محور الشر، والعمل على تفتيت السودان والصومال، وتحويل الوطن العربى والعالم الإسلامى إلى دويلات طائفية وعرقية ومذهبية تصبح إسرائيل بينها دولة يهودية كما صرح بذلك رئيس وزرائها وليست مجرد دولة علمانية حديثة، تقوم بدور مصر فى تحديث الوطن العربى، وتأخذ شرعية جديدة من طبيعة الجغرافيا السياسية المحلية للمنطقة وليست من أساطير المعاد القديمة، شعب الله المختار وأرض المعاد.

إن زيارة ملك أسبانيا للمدينتين المغربيتين المحتلتين رمز وإشارة. رمز على أن الوعى الأوروبى الاستعمارى لم ينته بعد. وإشارة على أن استمرار الهجرات

المغربية إلى أسبانيا، والعربية إلى أوروبا هو احتلال غير مباشر وفتوحات جديدة من الجنوب فى الشمال عن طريق العمالة المهاجرة، فى حاجة إلى حركة "استرداد" جديدة، ومد من الشمال إلى الجنوب. وإذا كان "الإرهاب" الإسلامى قادما من الجنوب إلى الشمال فإن "الاستعمار" الغربى قادم من الشمال إلى الجنوب. وقد تكون عودة أوروبا إلى وعيها الاستعمارى القديم أحد الحلول لحل أزمات أوروبا الداخلية، فقد الروح وخواء النفس، وما سماه بعض الفلاسفة "أفول الغرب" أو "أزمة الوعى" أو "قلب القيم". فإذا كان المشروع الأوروبى القديم لا يستهوى الأجيال الجديدة، أكبر قدر ممكن من الإنتاج لأكبر قدر ممكن من الاستهلاك لأكبر قدر ممكن من السعادة، فلعل الوعى الاستعمارى القديم للمحافظين الجدد والباحثين عن الذهب من الذين عبروا المحيطات إلى نصف الكرة الغربى، يعطى دفعة جديدة لأوروبا. وقد تُوقفه حركة تحرر عربى وطنى ثانية لرد الهجمة الاستعمارية الجديدة. إنما تستطيع الأجيال الجديدة أن تبدأ عصورا حديثة أوروبية جديدة، خالية من المعيار المزدوج، الحرية والتحرر لأوروبا، والهيمنة والتسلط على غيرها، وتعمل لأجل إنسانية واحدة، دون مركز ومحيط، وشمال وجنوب، وغرب وشرق.

٦- العنف الأمريكي في الداخل أيضا

العنف الأمريكي ليس في الخارج وحده، العدوان على العراق وأفغانستان، والسودان وليبيا من قبل، وتهديد لبنان وسوريا وإيران والصومال بالتدخل. فهي شرطي العالم الذي يفرض قانونه بالعصا على كل من يشق عصى الطاعة على "فتوة" الحي. وما يحدث في الخارج من عدوان على الشعوب يحدث في الداخل أيضا بالعدوان عليه من مواطنيه. فالمجتمع مفرغ من الداخل. وبقدر ما تستعمل الولايات المتحدة الأمريكية القوة ضد الخارج، القوة المنظمة بالجيوش وأسلحة الدمار الشامل، تستعمل القوة ضدها في الداخل بنفس العدوانية وقتل الأبرياء. الجريمة المنظمة في الخارج تقوم بها الدولة، والجريمة المنظمة في الداخل يقوم بها الأفراد.

هذا ما حدث منذ شهر تقريبا في ولاية فرجينيا في كلية الهندسة بمدينة بروزبرج عندما أطلق مهاجر أمريكي من أصل كوري جنوبي النار على الطلاب والأساتذة فقتل اثنين وثلاثين من الأمريكيين والأجانب بدم بارد مع سبق الإصرار والترصد، وتسجيل العملية منذ بدايتها بالصوت والصورة في مجتمع يعشق الإعلام ويقدسه.

اندماج المهاجرين حتى من الجيل الثاني لم يتحقق. وبوتقة الانصهار التي أرادتها أمريكا مجرد أسطورة. فالمجتمع مازال فسيفساء من المهاجرين طبقا للون والأصل العرقي وعلى مراتب كما هو الحال في نظام الطبقات في الهند. أعلاها

(*) الاتحاد: ١٢ مايو ٢٠٠٧، الدستور: ١٠ مايو ٢٠٠٧، الزمان: ٩ مايو ٢٠٠٧، العربي الناصري: ١٣ مايو ٢٠٠٧.

الأنجلوسكسونيون البيض البروتستانت الذين هاجرا أول مرة من بريطانيا واستقروا على الساحل الشرقى حيث السلطة والمال. ثم تتراتب الطبقات من الأعلى إلى الأدنى، الألمان، والإيطاليون طبقا لطبقاتهم الأصلية فى أوروبا. ثم يأتى فى ذيل القائمة الأسبان ثم السود. مع أن الأسبان هم الذين اكتشفوها، والسود هم الذين بنوها بعد أن تم اصطيادهم من أفريقيا عبيدا ليحلوا محل الملايين من السكان الأصليين الذين تم استئصالهم. ومن تبقى منهم وضعوا فى محميات للسياحة ولاستوديوهات هوليود. لم يندمج القاتل من أصل أسيوى فى المجتمع الأمريكى. وشتان ما بين أمريكا وآسيا، بين العالم الجديد والعالم القديم، بين قارة الذهب والمال، وقارة الديانات والحضارات.

والطالب فى كلية الهندسة أى فى كلية عملية تقوم على العقل والعلم. عاش الطالب القاتل وحيدا نفسيا لا يشارك المجتمع قيمه. عاش متوحدا مع نفسه ومتغربا مع غيره مما أدى إلى الانفصال الكامل بين الفرد والمجتمع، بين المواطن الدولة. ويبدو أن العلوم الطبيعية والرياضية لا تملأ الفراغ الروحى لدارسيها كما تفعل العلوم الإنسانية. ولا تشبع فيهم البحث عن معانى الحياة والوجود والمصير. إنما يظهر التنظيم الهندسى فى الجريمة المنظمة التى تقوم بها أمريكا فى الخارج عن طريق أجهزة الاستخبارات والجيوش النظامية. ويقوم بها الأفراد فى الداخل عن طريق الإعلام وأجهزة التسجيل الصوتى والمرئى. وهى ليست حادثة فردية معزولة بل نمطا سلوكيا أمريكيا فى رفض المجتمع وقيمه، والدولة ونظامها كما حدث من قبل فى تفجير المبنى الفيدرالى الأمريكى فى أوكلاهوما من أمريكى أبيض تيموتى ماكفاى. لا يعترف إلا بالقوة الفردية واستقلال الولاية. والقاتل الانتحارى الجديد يستأنف عملية القتل التى تمت فى جامعة كولومبيا. دبرها أيضا أمريكيان أبيضان، ديلان كليبولد وأريك هاريس. ولن تكون الأخيرة طالما

العنف هو نموذج السلوك الأمريكى، العنف فى الخارج على الآخرين، والعنف فى الداخل على النفس.

وفى تسجيله الصوتى المرئى على مدى عشر دقائق، وألف وثمانمائة كلمة، وثلاث وأربعين صورة، وسبعة وعشرين لقطة فيديو، عبر الطالب عن رفضه لقيم المجتمع الأمريكى، وأسلوب الحياة الأمريكى، والحلم الأمريكى، وأسطورة التفوق الأمريكى، والغرور الأمريكى، والرموز الأمريكية، المرسيدس وثقافة العربات والطرق السريعة وصناعة السيارات فى دترويت وغيرها. والقلادة الذهبية التى تزين بها النساء جيدها مظهر من مظاهر الغنى. وقد كان البحث عن الذهب أحد أسباب الاندفاع نحو الغرب الأمريكى فى الهجرات الأولى. وحسابات البنوك والودائع والمدخرات حياة الأمريكى خاصة بعد التقاعد لينعم بالحياة بعد أن شقى فى الإنتاج الذى قضى فيه شبابه. والوفرة الأمريكية تؤدى إلى الإشباع الكامل لحاجات البدن ولكنها لا تؤدى إلى سعادة الروح. الوفرة الزائدة عن الحاجات تصيب الإنسان بالغثيان. والفودكا والكونياك رمز السكر والعربدة، والانغماس فى ملذات الدنيا. ويضاف إليها اللبان والأيس كريم والكوكاكولا وهو ما لا يستطيع الأمريكى الاستغناء عنه وهو فى قلب المعارك وفى أتون الحروب. الأمريكيون هم أسباب الشقاء فى العالم، أطفال السوء، والرجال الأشقياء، ورسل الخطيئة، وغواية الشيطان.

قتل الطالب منذ السابعة صباحا طالبين لإبعاد الانتباه عما تبقى من الجريمة. وانخدعت الشرطة. وحاصرت المبنى الأول الذى قتل فيه الطالبان. وزادت فى العدد، وأحضرت الأسلحة، وحشدت القوات. وباقى الجريمة تتم بعد ذلك بثلاث ساعات فى قاعة الدرس حيث اجتمع عشرات الطلاب فى الصباح للاستماع إلى الأستاذ الذى أغلق الباب وحصنه حتى لا يهرب أحد. والشرطة

مازالت فى المحل الأول، واقعة تحت الخداع ضد أسطورة الشرطة الفائقة العدة والعتاد والتى قتلت من قبل عشرات المعارضين السياسيين وقادة المظاهرات والاحتجاجات السوداء. وتم قتل ثلاثين طالبا من مسدسين آليين كما يفعل رامبو فى العراق، من قتل الآمنين، ودك المنازل بمن فيها على من فيها بالطائرات. فاستعراض القوة يشبع غرور النفس. وقتل الأبرياء وتعذيبهم يشبع عقدة الصادية عند الأمريكى، وتلذذه بإيلام الآخرين.

وقبل تنفيذه العملية الانتحارية التى طالما أدانتها أمريكا فى العراق بالرغم من الفرق بين العدوان على الأبرياء فى الداخل ومقاومة العدو المحتل فى الخارج قام القاتل بالتدرب عليها. وسجلها بالصوت والصورة فى مجتمع الإعلام حياته. وارتدى لباس رعاة البقر، النموذج الأمريكى فى استعمال القوة، وإظهار الشجاعة والبطولة الفردية. واعترف أمام أجهزة الإعلام الخاصة به بالجريمة والدافع عليها مثل أبطال جان بول سارتر وهم يسجلون حياتهم وأفعالهم قبل الانتحار.

هو قدر لا فكاك منه، واختيار أوحد لا بديل عنه. والسبب هو المجتمع الأمريكى الذى لم يترك له خيارا آخر. كانت هناك مائة بليون فرصة لمنع هذه الجريمة وتفادى الحادثة ولكنه دفع هذا المواطن البرىء إلى أقصى مدى، وجهه إلى الحائط. كان يمكن للمجتمع الأمريكى الذى قام على مبادئ الثورة الفرنسية، الحرية والإخاء والمساواة، أن يتمسك بإعلان الاستقلال، ومبادئ الدستور، ويمثل الآباء المؤسسين الأوائل. كان يمكن للمجتمع الأمريكى أن يدافع عن الحرية فى العالم، حرية الأفراد وحرية الشعوب بدلا من الاكتفاء بتمثال الحرية فى ميناء نيويورك، وتشدق الإدارة الأمريكية بأنها بغزوها العراق وأفغانستان إنما تدافع عن العالم الحر وقيم الحرية والديموقراطية. كان يمكن أن يشارك باقى الشعوب فى ثرواته بدلا من أن يمتلك أقل من ٥ ٪ من سكان العالم نسبة ٩٠ ٪ من ثروات العالم.

كان يمكن أن يساهم فى مشاريع تنمية قدرات العالم الثالث، ويقضى على التصحر فى أفريقيا الذى سببه الرجل الأبيض عندما أخذ من أفريقيا أكثر مما أعطاها لأنه يعلم أنه راحل. ويقضى على الجفاف والجوع والأمراض التى تحصد الملايين سنويا فى تشاد ومالى وجنوب السودان والصومال وإريتريا وبنجلادش. كان يمكنه أن يقيم السدود، ويبنى الجسور، ويشق القنوات لزيادة مساحة الأراضى المزروعة بدلا من تدميرها كما يفعل فى العراق وأفغانستان.

إنها مسئولية المجتمع الأمريكى إذن. هو السبب غير المباشر فى اقتراف الجرائم وتلويث دم الشباب بالدماء لأنه تعود على سفك دماء الأبرياء. لذلك قرر هذا الطالب الشاب المواجهة وعدم الهروب والفرار. وقرر تخليص المجتمع الأمريكى من مآسيه وشروره وآثامه. كما قرر تخليص أسرته، أبنائه وإخوته، وتحمل أخطاء البشر جميعا كما فعل السيد المسيح. فالمسيح يصلب من جديد لأنه يُصلب كل يوم فى العراق وأفغانستان وفلسطين والشيشان وكشمير وسوريا وإيران والسودان. يصلب فى الداخل وفى الخارج. وكما تتحمل أمريكا أوزار العالم فإن هذا الشاب يتحمل أوزار أمريكا فى العالم. فهو الضحية وأمريكا الجلاد، وليست أمريكا هى الضحية وهو الجلاد. أمريكا تواجه قدرها فى الداخل، كما أن الشعوب تواجه قدرها بالعدوان الأمريكى عليها. وتنتهى الحرية إلى قدرية، وينتهى الاختيار إلى حتمية.

انهيار أمريكى من الداخل هو الذى سيؤدى إلى انهيارها فى الخارج. وفاقد الشىء لا يعطيه. العدوان الأمريكى فى الخارج يُحدث رد فعل بعدوان الأمريكى على مجتمعه فى الداخل حتى تذوق أمريكا على يد أبنائها من المرارة التى تسقيها هى للآخرين. إن المجتمع المفرغ من الداخل لا يستطيع أن يكون مصمتا فى الخارج. والمجتمع الخاوى من الداخل لا يستطيع أن يكون صامدا فى الخارج. وبالرغم من

استعمال أمريكا القوة المفرطة فى الخارج وجميع أنواع أسلحة الدمار الشامل فإن العدم ينخر فيها من الداخل. وقد تقضى النملة فى أذن الفيل عليه بإثارته وإثبات عجزه مهما التوى خرطومه وطالت أنيابه.

إن شو، وهو اسم الطالب الضحية، هو نموذج مصغر للمجتمع الأمريكى المدجج بالسلاح لقتل الأبرياء، ولكنه فى النهاية يقتل نفسه. فيتحول الجلاد إلى ضحية. وكما يقول الإنجيل: "تُقتلون بنفس السيف الذى به تقتلون".

obeikandl.com

٧- الصهيونية والمحافظة الجديدة

أيديولوجيتان للهيمنة سادتا العصر الحديث: الصهيونية للهيمنة على الوطن العربى بل والعالم الإسلامى فى أفريقيا وآسيا وعلى العالم الغربى، أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية أى على العالمين القديم والجديد معا، والمحافظة الجديدة للهيمنة على العالم كله خاصة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، مصادر الطاقة والثروة الطبيعية والعمالة الرخيصة والاستهلاك. وقد عانى العرب والمسلمون منهما معا. احتلت أوطانهم، واستعبدت شعوبهم، وتابعت نظمهم السياسية تجد فيهما التأييد الخارجى بعد فقدانها الشرعية الداخلية.

وهناك اتفاق فى النشأة والبنية والهدف بين الأيديولوجيتين والدولتين اللتين تبنتهما، إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. فقد نشأت كلا الدولتين على أنقاض شعب آخر، الشعب الفلسطينى، وسكان أمريكا الأصليين. تحول الشعب الفلسطينى إلى مجموعة من اللاجئين خارج فلسطين، فى المخيمات وفى أوروبا وأمريكا وفى باقى بقاع العالم. وحلت محلهم هجرات يهودية من كل بقاع العالم تحت شعار "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". وكما عاش ما تبقى من سكان أمريكا الأصليين "الهنود الحمر" فى محميات داخل وطنهم كذلك يعيش عرب ١٩٤٨ فى قرى داخل وطنهم المغتصب. وكما فشلت أمريكا فى جعل نفسها "بوتقة انصهار" للشعوب المهاجرة وظلت القضية العنصرية أحد قضاياها الرئيسية بين

(*) الاتحاد: ٥ مايو ٢٠٠٧، الدستور: ٨ مايو ٢٠٠٧.

البيض والسود والأسبان والأسيويين والعرب والمسلمين كذلك ظلت المسألة العرقية مسألة رئيسية فى إسرائيل بين اليهود الشرقيين "السفرديم" واليهود الغربيين "الاشكناز"، بين الدينيين والعلمانيين، بين الأغنياء والفقراء، بين أنصار الحرب وأنصار السلام.

كلاهما دولتان حديثتان، نتاج العصر الحديث. فقد وصل كولومبوس أمريكا عام ١٤٩٤ بعد سقوط غرناطة ١٤٩٢ آخر معاقل المسلمين بالأندلس وبنفس الخرائط العربية التى تتحدث عن كروية الأرض. فعمر الولايات المتحدة حوالى خمسة قرون مقارنة بالشعوب العربية الإسلامية وعمرها آلاف السنين، مصر القديمة والعراق وحضارات ما بين النهرين وفلسطين أرض كنعان وشبه الجزيرة العربية وحضارة اليمن السعيد.

وقد تحولت الأيديولوجيتان من نزعتين دينيتين إلى أيديولوجيتين سياسيتين. فقد نشأت الصهيونية نزعة روحية فى القرن التاسع عشر من أجل المحافظة على التراث الروحى اليهودى عند الكالى بعد أن فشل التنوير العقلانى عند اسبينوزا ومندلسون. ثم تحولت إلى أيديولوجية سياسية فى القرن العشرين أثر اضطهاد اليهود فى مجموع أوروبا شرقا وغربا بعد حادثة درايفوس الشهيرة فى فرنسا، وبداية الاضطهاد النازى للملل والأعراق غير الجرمانية مثل اليهود والتى رفضت الانتماء الوطنى واستثمار رؤوس أموالها فى مشاريع التنمية الوطنية، وآثرت العزلة والخصوصية وحياة الجيتو. وحدث نفس التحول فى النزعة المحافظة الجديدة التى نشأت نزعة دينية للمحافظة على التراث المسيحى ضد النزعة المادية الدنيوية الأمريكية وقبل أن تتحول إلى أيديولوجية سياسية عند المحافظين الجدد فى الإدارة الأمريكية الحالية.

وتقوم الأيديولوجيتان على الإختيار الإلهى. فقد اختار الله أمريكا لإنقاذ العالم وقيادته وكما هو مدون على الدولار "نثق بالله". بل إن بعض الفرق المسيحية الأمريكية تدعى بأن المسيح قد ظهر لها وأن نبوة جديدة قد أعطيت لأحد أنبيائها للتأكيد على إنقاذ الرجل الأبيض للعالم. فهى أيديولوجية من السماء. ودعاتها رسل وأنبياء. ومحققوها قديسون وأولياء. لا يخطئون. ولا توجههم مصالح. أطهار أتقياء أصفياء.

وكلاهما يقوم على وعد إلهى بالنصر حتى لو تكررت الهزائم، هزيمة إسرائيل فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، وأمام حزب الله فى حرب لبنان فى يوليو ٢٠٠٦. فجيش الرب فى إسرائيل لا يقهر. والقوة الأمريكية قادرة على غزو العالم كله حتى ولو لم تصمد أمام المقاومة العراقية والأفغانية.

وكلاهما لا يعترف بالآخر. ففى إسرائيل لا يوجد إلا شعب الله المختار. وغيرهم "جونيم" أى أغيار **﴿وقالوا ليس علينا فى الأميين سبيل﴾** يجوز لهم الذبح والقتل والتدمير وتجريف الأراضى والقضاء على الزرع والحرب والبشر، نساء وأطفالا وشيوخا. وفى أمريكا لا توجد إلا الحرية والديموقراطية، نموذج العالم الحر، والنموذج الأمريكى هو النموذج الذى يقتدى العالم كله به.

كلاهما يستعمل القوة والعنف وكافة أساليب الحرب والدمار لتحقيق أغراضه. ويذاع أن أقوى جيشين فى العالم هما الجيش الأمريكى والجيش الإسرائيلى. فأمريكا بلا حدود. وتستطيع أساطيلها وصواريخها وطيرانها من خلال قواعدها المنتشرة فى كل أنحاء العالم الوصول إلى كل قارات العالم الخمس. وإسرائيل أيضا بلا حدود. حدودها هى ما يستطيع جيش الدفاع الإسرائيلى الوصول إليه إلى أواسط آسيا وأفريقيا وأوروبا. كلاهما إمبراطورية للتوسع

والانتشار، من النيل إلى الفرات فى إسرائيل، وكل العالم الحر فى أمريكا.

كلاهما يعبد القوة والمال والثروة والسيطرة على المقدرات الاقتصادية والمالية للعالم، والبنوك والشركات والاستثمارات والصناعات الكبرى والشركات المتعددة الجنسيات، العابرة للقارات. ومن خلال الاقتصاد تسيطر على السياسة.

كلاهما ذو مصالح مشتركة، السيطرة على النفط العربى الإسلامى وعوائده واستثماراته، والسيطرة على الأسواق العربية وكل مصادر الثروة الطبيعية فى العالم. كلاهما تتحكم فيه القيم المادية **﴿وما يهلكنا إلا الدهر﴾**، دينية فى الظاهر ومادية فى الباطن. كلاهما يشيعان ثقافة الاستهلاك بدعوى الرفاهية والوفرة. كلاهما يبغى القضاء على استقلال الشعوب، ثقافيا وسياسيا واقتصاديا حتى تتم لهما السيطرة على العالم.

وبالرغم من الخلاف فى الظاهر، إسرائيل دولة صغيرة، وأمريكا قارة كبرى إلا أن الدولة الصغرى تقوم بدور الدولة الكبرى من خلال النفوذ فى العالم. والدولة الكبرى تقوم بدور دولة صغرى قصيرة النظر دون وعى تاريخى ورؤية بعيدة لمصالحها ومستقبلها. وبالرغم من أن إسرائيل تعتمد فى وجودها على العون الخارجى فى المال والسلاح وإحساس الغرب بالذنب تجاهها لما اقترفته النازية وكافة أشكال الاضطهاد لليهود فى العالم إلا أنها تقوم بلعبتها الخاصة وترسم سياسات الدول الكبرى لما اكتسبته من خبرات مختلف الشعوب وتراثها التاريخى الطويل. وكذلك أمريكا بالرغم من أنها تملك كل المقومات الداخلية الاقتصادية إلا أنها خاضعة لجماعات الضغط المختلفة ومنها اللوبى الصهيونى لتوجيه سياسات الولايات المتحدة لصالحها.

هذا الاتفاق فى النشأة والبنية والأهداف هو الذى يوحد بين الصهيونية

والمحافظة الجديدة، بين السياسة الأمريكية والسياسة الإسرائيلية إلى حد التطابق الأعمى. فغزو العراق لصالح إسرائيل أولا، وتهديد إيران لحماية إسرائيل أولا، والسلام والتطبيع لصالح إسرائيل أولا، ومناهضة العنف لصالح الاعتدال لمصلحة إسرائيل أولا. بل لقد وحدت الصهيونية المسيحية أو المسيحية الصهيونية بينهما فى أيديولوجية واحدة تحقق الأهداف المشتركة.

ولقد خلقت الأيديولوجيتان والسياستان الصهيونية والأمريكية موجة عداء لهما فى كل أنحاء العالم حتى فى قلب العالم الحر، باعتبارهما عنصرية وهيمنة وتوسع. تبشر بعالم جديد يقوم على العدل وليس على القوة، على المساواة بين الشعوب وليس على الاستعلاء العنصرى. وقد دفع ذلك بعض فلاسفة التاريخ والحركات المناهضة إلى التنبؤ بسرعة انهيار الأسطورتين، التفوق الإسرائيلى والتفوق الأمريكى بل وبنهاية إسرائيل والإمبراطورية الأمريكية فى المستقبل طال الأمد أم قصر، أسوة بقوم عاد وثمود، وفرعون وهامان.

٨ـ الدولـــة اليهوديـــة

عاشت إسرائيل منذ نشأتها على أسطورة أنها دولة ديمقراطية، بل واحة الديموقراطية فى الشرق الأوسط وسط ديكتاتوريات عربية، ملكية أو عسكريات انقلابية. وهى دولة تعددية بها شرقيون سفارديم، وغربيون أشكناز تأتيها الهجرات اليهودية من كل الأجناس، بيضاء وسوداء وصفراء، من الدياسبورا إلى العاليا. والقدس مفتوحة لكل الأديان، والمقدسات الإسلامية والمسيحية فى حماية الدولة العلمانية التى ترعى حرية العبادة. ولو امتلك المسلمون الأقصى من فوق الأرض فإن إسرائيل تملكه تحت سطح الأرض حيث قواعد هيكل سليمان.

وكان هذا مدون فى الميثاق الوطنى الفلسطينى منذ إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، دولة علمانية تعددية يعيش فيها كل المواطنين على قدم المساواة بصرف النظر عن العرق والدين والطائفة. ولم تعترف به إسرائيل لأنها كانت تريد فى الحقيقة دولة يهودية خالصة خالية من العرب أو المسلمين أو النصارى. وكانت الدولة التعددية العلمانية مجرد دعاية أمام الغرب لأن أعدائها الذين يريدون إلقاءها فى البحر من الإخوان المسلمين وزعيم مقاومتهم الشيخ عزالدين القسام، ورئيسهم مفتى فلسطين. وهو ما ظهر بعد ذلك فى حماس والشيخ ياسين والجهاد الإسلامى.

(*) الاتحاد: ٨ ديسمبر ٢٠٠٧، الدستور: ٦ ديسمبر ٢٠٠٧، الزمان: ٦ ديسمبر ٢٠٠٧، العربى الناصرى: ٩ ديسمبر ٢٠٠٧.

وقبل مؤتمر أنابوليس وضعت إسرائيل شرطا للاعتراف بالدولة الفلسطينية التى مازالت فى الأذهان وفى الأقوال، دون الأرض والأفعال، وهو أنها دولة يهودية. وفى خطاب الرئيس الأمريكى الافتتاحى قال إن إسرائيل دولة قومية لليهود وهو ما يتفق مع قرار التقسيم فى ١٩٤٨، دولتان، واحدة للعرب والثانية لليهود. والغاية من ذلك الدفاع عن الكيان الصهيونى على الأمد الطويل، والنظر إلى الآجل دون العاجل. مادامت إسرائيل لم تستطع الحفاظ على توسعها واحتلالها لأراضى دول الجوار إلى ما لا نهاية بعد ازدياد المقاومة، والإصرار العربى على أنه لا سلام ولا اعتراف إلا بعد الانسحاب من الأراضى المحتلة منذ ١٩٦٧، وكما قررت بذلك المؤتمرات السابقة فى مدريد وأوسلو، وكما عبرت عن ذلك بوضوح مبادرة السلام العربية، الأرض فى مقابل السلام، الانسحاب الكامل فى مقابل التطبيع الكامل. فالانتصار العسكرى والتوسع الاستيطانى لهما حدود. لا تستطيع إسرائيل قضم ما لا تستطيع أن تهضم. المقاومة تشتد، والمقاطعة مستمرة، والرفض مازال هو الغالب على الوجدان العربى بصرف النظر عما تفعله أو تريده الحكومات.

وبهذا المطلب الجديد، الدولة اليهودية، تريد إسرائيل تحقيق أربعة أهداف: الأول إخراج عرب ١٩٤٨ من إسرائيل بعد أن أصبح التزايد السكانى لأكثر من مليون عربى منذ الاحتلال هما ثقيلا على إسرائيل. والتقارير تفيد أنه حتى عام ٢٠٥٠ يتجاوز العرب فى إسرائيل عدد الإسرائيليين مهما ازدادت الهجرات "تناسلوا تكاثروا فإنى مباه بكم أمتى يوم القيامة". والغربيون أنانيون لا يحبون التكاثر خوفا من انخفاض مستوى المعيشة. وإذا ما انضم على الأمد الطويل اليهود العرب إلى إخوانهم فإن العرب يكونون الأغلبية فى إسرائيل، وتضيع هوية الدولة وشرعيتها. ويتحول عرب إسرائيل إلى مواطنين من الدرجة الأولى لما كانت لهم الأغلبية وليسوا مواطنين من الدرجة الثانية كما هو الحال الآن. وفى أحسن

الأحوال يتم تبادلهم مع المستوطنين الإسرائيليين بعد ١٩٦٧ الذين قاربوا ثلاثة أرباع المليون، عرب فى إسرائيل فى مقابل إسرائيليين فى الدولة الفلسطينية إن قامت.

والثانى حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين منذ ١٩٤٨ بالإضافة إلى لاجئى ١٩٦٧ المقيمين فى المخيمات فى لبنان وسوريا والأردن ومصر، والمنتشرين فى كافة الوطن العربى، بل وفى الخارج فى أوروبا وأمريكا وفى الشتات فى كل بقاع العالم. ومن ثم يمكن التخلص من تجمعات سكانية يسهل فيها تجنيد شبابها فى المقاومة وممارسة العنف وتفريخ "الإرهاب" بلغة أمريكا وإسرائيل. وحماس فى غزة شاهد على ذلك. وحزب الله فى جنوب لبنان شاهد آخر. ولا يحق لهم العودة إلى دولة يهودية وهم غير يهود، مسلمين ونصارى. وينتهى الوطن لصالح الدين، وهوية المواطن لصالح الطائفة.

والثالث شرعية هجرة يهود العالم إلى إسرائيل. الدولة اليهودية استمرارا من الشتات إلى العاليا بحيث يمكنها استيعاب ثمانية مليون يهودى خارج إسرائيل إلى الداخل. وبالتالى تصبح إسرائيل أربعة عشر مليونا، وهم عدد اليهود فى العالم، بما فيهم يهود أمريكا عامة ونيويورك خاصة. وهو نوع من الأمن الكمى السكانى وسط المحيط العربى ثلاثمائة وخمسون مليون عربى وسط مليار وربع من المسلمين. فبعد حرب أكتوبر- تشرين ١٩٧٣ وحرب لبنان وفى مقدمته المقاومة اللبنانية، وحزب الله فى قلبها عام ٢٠٠٦ أحسن العرب الكيف، وإدارة الحرب، واستعمال الصواريخ. وإيران تقوى يوما بعد يوم. والحمية الإسلامية هى المسيطرة على الشوارع. ومسلمو إندونيسيا وبنجلاديش والملايو وأواسط آسيا والصين يتوقون إلى الاستشهاد فى القدس. فالدولة اليهودية تقابل كما بكم حتى ولو كان فى صالح العرب والمسلمين. يكفيها نصرة الغرب وأمريكا لها وعداؤهما للعرب والمسلمين.

والرابع إعطاء شرعية جديدة للكيان الصهيونى لا تقوم على أساطير أرض المعاد وشعب الله المختار المستمدة من قراءة خاصة للتوراة بل على طبيعة الجغرافيا السياسية فى المنطقة بعد تجزئتها إلى دوليات طائفية سنية وشيعة، إسلامية وقبطية، أو عرقية، تركمانية وكردية، عربية وبربرية وزنجية. وبالتالى تكون إسرائيل دولة يهودية تجمع بين العرق والدين مثل باقى شعوب المنطقة.

والعجيب أن تعلن ذلك أمريكا نفسها وهى التى تضرب بنفسها المثل فى النظام الديموقراطى التعددى، بوتقة الانصهار التى يتساوى فيها الجميع. وهى دعاية أخرى نظرا لاضطهاد الأقليات "السوداء" و"السمراء" وتصدى "الواسب" WASP وهو اختصار للبرتستانت البيض الأنجلوساكسون. ولو أن فلسطين المقاومة أعلنت أنها ستكون دولة إسلامية لقامت الدنيا ولم تقعد. وتم اتهامها بالأصولية والعنف والإرهاب. وماذا عن نصارى الشام وهم عرب. هل ينضمون للدولة القومية العربية أم يكونون دولة نصرانية كما فعل غساسنة الشام قبل الإسلام؟ وماذا عن لبنان؟ هل يعلن نفسه دولة عربية أم مارونية أم سنية أم شيعية؟ وماذا عن الخليج هل يعلن نفسه دولة سنية أم شيعية؟ وماذا عن اليمن، هل يعلن نفسه دولة زيدية أم دولة شافعية؟ وماذا عن السودان، هل يعلن نفسه دولة عربية أم زنجية، إسلامية أو مسيحية أو وثنية؟ وماذا عن دول المغرب العربى، هل تعلن عن نفسها دولة عربية أم دولة بربرية "أمازيغية"؟

كانت حجة أمريكا لغزو أفغانستان أنها دولة أصولية إرهابية يحكمها الطالبان وأسامة بن لادن. وإرهاب إسرائيل الدولة اليهودية لا يقل عن إرهاب أفغانستان الدولة الإسلامية. وتعادى أمريكا كل الحركات الإسلامية وتعلن عن حقها فى إنشاء دولة إسلامية. وتعادى أمريكا الحكم الإسلامى فى إيران وتتهمه بالإرهاب، والحكم الإسلامى فى السودان وتحاول فصل الجنوب وكردفان عنه.

وتعارض وصول المحاكم الشرعية إلى الحكم فى الصومال وتساعد إثيوبيا على غزوه أو تأييد الحكم العسكرى الديكتاتورى فى باكستان وهى ترفع شعار الديموقراطية فى الشرق الأوسط الكبير أو الجديد خوفا من وصول المعارضة الإسلامية فيه إلى الحكم. بل إنها لا ترحب بوصول الإسلاميين المعتدلين أو الإسلام المستنير إلى الحكم فى تركيا والمغرب، ممثلا فى حزبى العدالة والتنمية. وترفض دخول تركيا الاتحاد الأوروبى لأنها ذات ثقافة مغايرة ودين مختلف فى حين تقبل انضمام الدولة اليهودية. وتعتبر الإسلام تهديدا لأمريكا والغرب خاصة بعد أحداث سبتمبر فى واشنطن ونيويورك.

لا فرق بين المحافظين الجدد والصهيونيين الجدد. فكلا الفريقين نزعتان أصوليتان يحكمون باسم الاختيار الإلهى فى حين أن حماس والجهاد منظمتان إرهابيتان.

والحقيقة أن "الدولة اليهودية" ستذهب مثل باقى الدول الثيوقراطية لأنه لا توجد يهودية واحدة بل عدة مذاهب يهودية، أرثوذكسية وليبرالية وإصلاحية، شرقية وغربية، عربية وغربية، سلفية وعقلانية. فأى يهودية ستقوم عليها الشرعية الجديدة للكيان الصهيونى؟ ستذهب كما ذهبت أساطير المعاد وشعب الله المختار وستنتهى الدولة العنصرية كما انتهى النظام العنصرى فى جنوب أفريقيا **﴿وبأسهم بينهم شديد﴾**.

فهرس الكتاب

الموضـــــوع رقم الصفحة

الإهـــداء ٣

المقدمـــة ٥

الباب الأول

الواقـــع العربـــى الراهـــن

١- من المسئول، الخارج أم الداخل؟ ٩

٢- الإهانة والتحدى ١٥

٣- الاتجاه المعاكس أم الاتجاه المغاير؟ ٢١

٤- القهر الاجتماعى ٢٦

٥- التناقضات الهدامة ٣١

٦- غياب الوعى التاريخى ٣٦

٧- وطن بلا صاحب ٤١

٨- ممنوع من الدخول ٤٥

٩- بيع نفس عربية ٥٠

١٠- السلاح أم الحوار؟ ٥٦

١١- الأقوال والأفعال ٦٢

١٢- العصـــا ٦٧

obeikandl.com

١٣- من يريد الديموقراطية؟ ٧٢
١٤- الصحة والمرض ٧٧
١٥- السلطة الرابعة ٨٢
١٦- حدود سلطة الرؤساء ٨٧
١٧- حدود الإيديولوجيات وقوة الفقراء ٩٢
١٨- المفاتيح السحرية ٩٧

الباب الثانى

الديـــن والثقافـــة والسياســـة

١- الشريعة والدستور ١٠٥
٢- الإسلام والصراع على السلطة ١١١
٣- مصر وتركيا وإيران ١١٧
٤- الاستقطاب المصطنع ١٢٣
٥- العلمانية والسلفية ١٢٩
٦- تدنيس المقدس ١٣٥
٧- الثورة الإسلامية فى إيران، بين التحديات الخارجية والمخاطر الداخلية ١٤٠
٨- الدين ورجال الأعمال ١٤٥
٩- نقد الوعظ الدينى ١٥٠
١٠- الفتنة بين السلفيين والعلمانيين ١٥٥

obeikandl.com

١١- العدالة والتنمية فى تركيا والمغرب ١٦٠
١٢- الدين والثقافة والسياسة فى رمضان، عتاب على الإعلام العربى ١٦٦
١٣- الخليج بين إيران ومصر ١٧١
١٤- "وفديناه بذبح عظيم" ١٧٦
١٥- الدولة والثقافة ١٨٠
١٦- الثقافة والحزب ١٨٥
١٧- الثقافة الخائفة ١٩٠
١٨- الصالونات الثقافية للملوك والأمراء ١٩٥
١٩- المال والثقافة ٢٠٠

الباب الثالث

أوروبا وأمريكا وإسرائيل

١- الاستشراق السياحى ٢٠٧
٢- هل تعود أوروبا لاستقلالها؟ ٢١٣
٣- هل تستطيع أوروبا أن تحاور غيرها؟ ٢١٩
٤- السحر والإعلام فى الوعى الغربى ٢٢٥
٥- العنف الأمريكى فى الداخل أيضا ٢٣٠
٦- هل تحرر الوعى الأوروبى من الاستعمار؟ ٢٣٥
٧- الصهيونية والمحافظة الجديدة ٢٤١

obeikandl.com

٨- الدولة اليهودية ٢٤٦
فهرس الكتاب ٢٥١
لنفس المؤلف ٢٥٥

obeikandl.com

لنفس المؤلف

أولا: تحقيق وتقديم وتعليق:

١- أبو الحسين البصرى: المعتمد فى أصول الفقه، جزءان: المعهد الفرنسى بدمشق ١٩٦٣-١٩٦٥.

٢- الحكومة الإسلامية للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٧٩.

٣- جهاد النفس أو الجهاد الأكبر للإمام الخمينى، القاهرة ١٩٨٠.

ثانيا: إعداد وإشراف ونشر:

١- اليسار الإسلامى، كتابات فى النهضة الإسلامية، العدد الأول، المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨١.

ثالثا: ترجمة وتقديم وتعليق:

١- نماذج من الفلسفة المسيحية (المعلم لأوغسطين، الإيمان باحثاً عن العقل لانسليم، الوجود والماهية لتوما الاكوينى)، الطبعة الأولى، دار الكتب الجامعية، الإسكندرية ١٩٦٨، الطبعة الثانية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٨، الطبعة الثالثة، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٢- اسبينوزا: رسالة فى اللاهوت والسياسة، الطبعة الأولى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثانية الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٣، الطبعة الثالثة، دار الطليعة، بيروت ١٩٨١.

٣- لسنج: تربية الجنس البشرى وأعمال أخرى، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١.

٤- جان بول سارتر: تعالى الأنا موجود، الطبعة الأولى، دار الثقافة الجديدة، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

رابعا: مؤلفات بالعربية:

١- قضايا معاصرة، الجزء الأول، فى فكرنا المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٦، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٧.

٢- قضايا معاصرة، الجزء الثانى، فى الفكر المعاصر، الطبعة الأولى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٧٧، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢، الطبعة الثالثة، مجد، بيروت ١٩٨٨.

٣- التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم، الطبعة الأولى المركز العربى للبحث والنشر، القاهرة ١٩٨٠، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨١، الطبعة الثالثة، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٧، مجد، بيروت ٢٠٠٠، ٢٠٠٢.

٤- دراسات إسلامية، الطبعة الأولى، الانجلو المصرية، القاهرة ١٩٨١، الطبعة الثانية، دار التنوير، بيروت ١٩٨٢.

٥- من العقيدة إلى الثورة، محاولة لإعادة بناء علم أصول الدين، (خمسة مجلدات)، الطبعة الأولى، مدبولى، القاهرة ١٩٨٧، الطبعة الثانية، المركز الثقافى العربى، بيروت ١٩٨٨.

٦- دراسات فلسفية، الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، دار التنوير (قرطبة)، بيروت ١٩٩٠.

obeikandl.com

٧- الدين والثورة فى مصر (١٩٥٢-١٩٨١)، (ثمانية أجزاء)، مدبولى، القاهرة ١٩٨٩.

٨- حوار المشرق والمغرب، توبقال، الدار البيضاء ١٩٩٠ (بالاشتراك مع محمد عابد الجابرى)، مدبولى، القاهرة ١٩٩١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٩٥.

٩- مقدمة فى علم الاستغراب، الدار الفنية، القاهرة ١٩٩١، مجد، بيروت ١٩٩٤، ٢٠٠٠، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٩.

١٠- هموم الفكر والوطن (جزءان)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، جـ١ التراث والعصر والحداثة، جـ٢ الفكر العربى المعاصر.

١١- الدين والثقافة والسياسة فى الوطن العربى، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

١٢- جمال الدين الأفغانى، المائوية الأولى (١٨٩٧-١٩٩٧)، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.

١٣- حوار الأجيال، دار قباء، القاهرة ١٩٩٨.

١٤- من النقل إلى الإبداع (تسعة أجزاء)، دار قباء، القاهرة ٢٠٠٠-٢٠٠٢.

١٥- ما العولمة؟ دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٢.

١٦- النظر والعمل والمأزق الحضارى العربى والإسلامى الراهن، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، ٢٠٠٣.

١٧- فشته، فيلسوف المقاومة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٣، الجمعية الفلسفية المصرية، القاهرة ٢٠٠٣.

obeikandl.com

١٨- من النص إلى الواقع، محاولة لإعادة بناء علم أصول الفقه، جـ١ تكوين النص، جـ٢ بنية النص، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٥.

١٩- حصار الزمن، الحاضر (إشكالات)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.

٢٠- حصار الزمن، الحاضر (مفكرون)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٤.

٢١- من مانهاتن إلى بغداد، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٤.

٢٢- جذور التسلط وآفاق الحرية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.

٢٣- حصار الزمن، الماضي والمستقبل (علوم)، مركز الكتاب للنشر، القاهرة ٢٠٠٥.

٢٤- برجسون، فيلسوف الحياة، المركز المصري للمطبوعات، القاهرة ٢٠٠٨.

٢٥- نظرية الدوائر الثلاث، قراءة معاصرة بعد نصف قرن (جزءان)، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠٠٨.

٢٦- من الفناء إلى البقاء، محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، جـ١ الوعي الموضوعي، جـ٢ الوعي الذاتي، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٩.

٢٧- محمد إقبال، فيلسوف الذاتية، دار المدار الإسلامي، بيروت ٢٠٠٩.

٢٨- من النقل إلى العقل، جـ١ علوم القرآن، دار الأمير، بيروت ٢٠٠٩.

٢٩- من النقل إلى العقل، جـ٢ علوم الحديث، دار الأمير، بيروت ٢٠١٠.

٣٠- من النقل إلى العقل، جـ٣ علم السيرة، مدبولي، القاهرة ٢٠١٢.

٣١- الواقع العربي الراهن، دار العين للنشر، القاهرة ٢٠١٢.

٣٢- الثورة المصرية في عامها الأول، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة ٢٠١٢.

٣٣- الوحي والواقع (تحليل المضمون)، المكتب المصري للمطبوعات، القاهرة ٢٠١٢.

obeikandl.com

خامسا: مؤلفات بالفرنسية والإنجليزية:

1- Les Méthodes d'Exégèse, essai sur La science des Fondements de la Compréhension, 'ilm usul al-Fiqh, le Caire, 1965.

2- L'Exégèse de la Phénoménologie, l'état actuel de la méthode phénoménologique, et son application au phénomène religieux (Paris, 1965). Le Caire, 1980. (Arabic Translation, Dar Al Amer, Lebanon, 2010).

3- La Phénoménologie de L,Exégèse, essai d,une herméneutique existentielle à partir du Nouveau Testament, (Paris, 1966). Le Caire, 1988. (Arabic Translation, Dar Al Amer, Lebanon, 2010).

4- Religious Dialogue and Revolution, essays on Judaism, Christianty and Islam, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1977.

5- Islam in the Modern World, 2 vols, I- Religion, Ideology and Development, II- Tradition, Revolution and Culture, Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo 1995, Dar Keba', Cairo 2000.

6- Cultures and Civilizations, conflict or Dialogue? 2 vols, I- The Meridian Thought, II- Cultural Creativity & Religious Dialogue Cairo, Book Center for Publishing, 2006.

obeikandl.com